له بلا درس ولا مطالعة . وانما العلماء من البشر فما عرفوا ما كان مخبوءاً لهم ولبني جنسهم من البرد الشديد وعواقبهِ هذا العام . ولا دلَّهم عليهِ ما يتفاخرون بهِ من علم البخار والغاز والكهربائيَّة وميزان الهواء وميزان البرد والحرارة وحركة الاجرام السمويَّة وهلمَّ جرًّا . ولقد اصاب سليمان الحكيم في ارسالهِ الانسان الى النملة ليتعلم الحكمة منها

تأخرنا العلمي واسبابهُ

تابع ما قبلهُ

بحناب رفعتلو اسعد افندي داغر

اذا نظرنا الى كتبنا المؤلفة والمترجمة نظرًا عامًّا وجدنا فيها ثلاثة عيوب لا نرى مندوحة عن الاشارة اليها الاول غلاء اثمانها – فانهُ ممَّا لا يسع احدًا منا انكارهُ ان كتبنا جميعها الاَّ ما ندر اذا قوبلت بكتب اهل الغرب توجد اغلى منها ثمنًا — كأننا اغنى منهم واقدر على دفع الاثمان الفاحشة فاذا طالعت في جرائدهم باب الاعلانات واطلعت على الكتب الجديدة يأخذك العجب من رخص اثمانها وتزداد عجبًا واستغرابًا متى ابتعتها منهم لانك تجد فيها ما يزيد ثمنها في عينيك بخسًا وانحطاطًا في جنب غزارة فوائدها ونفع محتوياتها بخلاف ما اذا طالعت الاعلانات في جرائدنا عن كتبنا العربيَّة الحديثة فانك لا تكاد تنتهي من تلاوة الاطناب في مكانة المؤلف – او المترجم — من العلم والاطراء في منطويات الكتاب ومندرجاتهِ العامرة بالفوائد وغير ذلك ممَّا يغريك على اذخارهِ ويحضك على اقتنائهِ . ويستهويك ان تبيع كل مالك وتبادر الى شرائهِ . حتَّى تنقبض منهُ وتعرض بوجههِ باسرِ عنهُ . لانك ان لم تجد ثمنهُ بضعة ريالات . فلا اقلّ من بعض فرنكات . وان اقنعت نفسك بنفسك بوجوب ابتياعهِ على رغم غلاء ثمنهِ لا تلبث في الغالب ان تلومها وتأخذها بالطيش والخفَّة عندما تطالعهُ من الخفّ الى القناع . ولا ترى فيهِ شيئًا حريًّا بالابتياع . بل بضاعة مزجاة كُلُّها من سقط المتاع فتضرب بهِ عرض الحائط وكم سبقك في هذا الامر ضارب . وتردَّد مع كثيرين غيرك قول المغبون — صفقة لم يشهدها حاطب

ومعلوم ان شراة الكتب ليسوا ممَّن يستطيعون ان يدفعوا اثمانها من فضلاتهم ولا ممَّن يحتفرون الذهب من حقولهم سبائك اوركازًا بل ممَّن ينتهزون الفرصة للوصول اليها

انتهازا . ويعانون في الحصول عليها عرق القربة حقيقةً لا مجازا . وهم دون خلق الله فقرًا واعوازا ولو كانت حاجتهم منها لا تتعدى الكتاب والكتابين لهان خطبهم ولكنها اصبحت تتجاوز المئات بين كُتيّباتٍ صغار ومجلداتٍ ضخام . ودفع اثمانها فوق طور الكثيرين منّا في مثل هذهِ الايام

ثانيًا عدم ضبطها بالحركات . فمّما لا يغرب عن الاذهان اننا بعد ما نفرغ من تعليم احدانا حروف الهجاء ونحقق اقتدارهم على صحة النطق بها وانطباع صورها المختلفة على أذهانهم نبدأ بتعليمهم الحركات الموضوعة لتقويم النطق بتلك الحروف حتّى اذا احكموا معرفة اصواتها بالتدقيق وأتوا على تمارين كثيرة موضوعة لهذهِ الغاية وتمكّنوا من النطق بالكلام المضبوط بالحركات وما يتبعها من عُلاماتِ الحروف ودّعوها وداعًا لا يعقبهُ لقاء . وانتقلوا الى كتب تعليم القراءة وما يتلوها من كتب الصرف والنحو والجغرافية والحساب وغيرها وهم يتطلبون الحركات كالعلامات ولا يرونها الاّ بالاشارة والايماء . واذ كانت هذهِ الحركات ما لا بدّ منهُ لحروفنا الهجائيّة لانها المقوّمة لاصواتها والمعينة على النطق بها وقد قيل عنها في بعض التعاليل اللغويّة انها فطريّة في كل ناطق بالضاد خلقيّة في طبيعة حروفنا كانت لها اتبع من ظلّ . في كل محل . وحيث لا ترى لها مع الحروف رسمًا . تكون منويةً اعتبارًا ومقدرةً حكما . ولذا يأخذ اولئك الطلبة الّذين تعوّدوا عليها في الابتداء يخبطون في قراءة ما أُغفل تحريكهُ خبط عشواء . فينحون ما حقهُ ان يكون مضموما . ويكسرون ما جاء فتحهُ او ضمهُ مخفوضا . ويذهبون بهذه الكلمة الى الامالة وفي تلكَ الى الاشمام عابثين بالكلام عبث الريح بالاغصان . ومدرجين في قراءتهم من سقيم اللفظ وفاسد النطق ما تنفرهُ المسامع وتوقر الآذان . وهُم معذورون في ذلك غير ملومين . لانهم مضطرون بالطبع الى التحريك ولا يرون لحركاتٍ يضبطوا اصواتها على التعيين . بل قد يرون بعضًا منها ولا يذكرون كيفيّة النطق بهِ لتحكم النسيان فيهم بانقطاع صلة التمرين وربّ معترض يقول : ان عدم تحريك هذه الكتب ليس بضائر ما دام التلميذ قادمًا على تعلّم فنّي الصرف والنحو اللذين يمكّنانهِ من تحريكها لنفسهِ بل اغفال تحريكها افيد لهُ من وجه . انها تكون لديهِ بمساعدة المعلم خير وسيلة للتمرين الصحيح المطابق لقواعد التصريف والاعراب : اقول : نعم لو كان ذلك محصورًا في كتب الصرف والنحو وما يليها من الفنون التي يتعلمها الطالب بعدها ولكن ما قول المعترض في الكتب التي يُخرّج بها قبل تعلم الصرف والنحو من مثل كتب تحسين القراءة وتعليم مبادىء الحساب والجغرافية وقواعد

الدين والادب اتركهُ فيها وشأنهُ يلفظ الكلام كيف اتفق لفظ النواة . وينطق بالتراكيب وضمّة الاواصر مقطعة الاوصال بغير اعتناء ولا مبالاة . اعتماداً على ما سيأتي في ما بعد من قواعد لتثقيف الاود وتسديد المنهج . وقوانين تقويم الامت وتسوية العوج . ثم هب ان النظر في هذا العيب كان منصوراً على كتب الصرف والنحو وما بعدها فهو باقٍ في محلهِ رغم ما يتعلمهُ فيها الطالب من قواعد التحريك الصحيح . ومبادئ الاصلاح والتنقيح . ولست اقول هذا بلسان من يجهل فوائد الصرف والنحو في ضبط الكلام . او من تخفى عليهِ خافية من مكان تأثيرها في هذا المقام . بل بلسان من يُلمُّ بهما بعض الالمام . ومع ذلك يعلم حق العلم ان الطالب لم يتمكن من ضبط كل كلمة بواسطتهما ولو افنى على درسهما سواد الليالي وبياض الايام . او من يجهل او ينكر عليَّ ان كتب الصرف حتَّى اطول مطولاتها لا تمكّن دارسها من معرفة حركة عين الفعل الثلاثي في الماضي والمضارع ولا تقدرهُ على تعيين حركة الفاء في اكثر المصادر الثلاثيَّة والصفات المشبهة ولا سيما ما جاء منها على وزن فُعل وفُعال ولا تذال لديهِ شيئًا من صعوبة ضبط كل اسم على وزنهِ المسموع فيهِ حتَّى يقطع بكونهِ على واحد من العشرة ان كان ثلاثيًا او الستة ان كان رباعيًا او الاربعة ان كان خماسيًا ولا تفيدهُ الاَّ ما هو دون الطفيف في ضبط اكثر الجموع المكسرة . وهذه المسموعات مع ما يضاف اليها من المقيسات الشبيهة بها لغموض وجهها على الاحداث وعدم سهولة القطع بتعيين صيغتها البنائيَّة او حالتها الاعرابيَّة ليست بالجزء اليسير من الكلام بل يكثر ورودها على الالسنة وشيوعها في الاستعمال حتَّى تراها شاغلةً اعظم جانب من التراكيب والتعابير في كتبنا ومؤلفاتنا . وهنا يعترض آخر بقولهِ : ان كان الحال كما ذكرت فضرورة التحريك محصورة في هذه المذكورات ولا حاجة اليهِ في خلافها . قلت نعم من هذا الوجه فقط لكنهُ ضروري وحاجة شيوعهِ في كل الكتب ولاسيما المدرسيَّة ماسة من وجه آخر ألا وهو تعويد صغارنا على النطق الفصيح واللفظ السالم من عيوب اللحن في جميع ما يقرأونهُ ويخرجون بهِ وتنشئتهم على ذلك الى حين خروجهم من المدرسة واذ ذاك يكونون ولا شك قد امتلكوا بسبب مزاولة التمرُّن ومداومة الارتياض عنان فصاحة النطق واصبح لفظ الكلام على قواعدهِ الصرفيَّة والنحويَّة ومسموعاتهِ اللغويَّة ملكة راسخة في اذهانهم رسوخ النقش في الصفاة . وعادة دائرة على السنتهم مدى الحياة . وشاهدي الاكبر على ذلك ما نراهُ من فصاحة اللسان عند علماء اللغة من الاسلام وسخافة النطق عند علمائها من النصارى فانك ترى كلام الفريق الاول عامرًا بضبط

التحريك على مقتضى الاحكام . يكاد يشرب لشدة العذوبة والانسجام . بينما ترى كلام الفريق الثاني مهشم الاوضاع مكسّر المباني . بل ترى عامة الاسلام الذين لم يتأدبوا في صغرهم على سوى القرآن الشريف يفوقون علماء النصرانيّة في لفظ الكلام منزّهًا عن شوائب اللحن والتحريف

ثالثًا عدم اتقان طبعها * ويدخل تحت قولنا هذا الاغلاط الطبعيّة التي تراها في اكثر هذه الكتب منبثة في صفحاتها منتشرة في جوانبها وهي على تنوعها وتعدّدها قد ترسل في هذه الكتب على علاتها مكتفيًا المؤلف في المحتام بقوله "وقد وقع فيه اغلاط لا تخفى على بصيرة القارىء" وان تفضّل باكثر من هذا اثبتها في جدول اشار فيه الى مواقعها من الصفحة والسطر في ذلك الكتاب . تنبيهًا على الخطإ وارشادًا الى الصواب . ولا يخفى ما في ذلك من اضاعة الفائدة على القارىء الذي لا يستطيع من نفسه اصلاح الخطإ في الكتب الخالية من ملحق الاصلاح ولا يمكنه الصبر على الرجوع اليه في كل صفحة عند تلاوته الكتب الملحقة به

ويتلو هذا العيب انطماس اكثر الحروف وتناهيها في الصغر في اكثر كتبنا . ومعلوم ان مطالعة كتب كهذه تستلزم تحديق النظر . وعقبى العمل على هذا السآمة والضجر . وان تغلّب المطالع عليها بالصبر والمزاولة فنصيبه فقد البصر . او الاصابة بالحَصَر . ويتلو هذين العيبين عيب رداءة الورق والتجليد وهو مستأثر بكل كتبنا العربيّة لا يسلم منه الاّ القليل . ولعلّ المطالع يعترض بقوله : ان هذا ليس من موضوع البحث بشيء اقول كذا يظن كثيرون ولكن تأمّلهُ قليلاً ترهُ داخلاً في بحثنا هذا اكل الدخول لان رداءة الورق والتجليد تقصر عمر الكتاب وتورده موارد التمزّق والبلاء قبلما تلمسهُ الاكفّ وتعانقهُ الانظار وان لم يبلَ سريعًا ويتمزّق في الحال ظهرت عليه اعراض العتق والانحلال على حين صاحبهُ لم يفرغ بعد من تلاوة مقدمة المصنف او فاتحة المترجم حتّى انك لترى الوالد في اكثر الاحيان مضطرًا ان يشتري لولده من الكتاب نسختين او ثلاثًا في السنة ولا يخفى ما في ذلك من داعيات الاعراض عن الدرس والمطالعة وموجبات كره البحث والتفتيش في هذه الكتب . وكثيرًا ما يدفع الانسان الريال والريالين ثمن كتاب كثير الفوائد جليل المنافع ويراهُ غايةً في رداءة الورق والتجليد فيزجهُ في مكتبته داخل الاقفال ، ويحجبهُ حتّى عن منافذ الهواء . مخافة ان تسري اليه يد الممارسة والاستعمال . بداء التمزق والبلاء سناني البنيّة